

ديوان

المغربيين

من شعر

صالح الدين القوصي

(الجزء الرابع)

الطبعة الأولى

غرة المحرم ١٤٢١هـ - أبريل ٢٠٠٠م

وقف لله تعالى لا يباع

(١)

مقدمة ديوان الغريق

الغريق

السـر

﴿الغَرِيقُ﴾

﴿السِّرُّ﴾

بِسْمِ الْكَرِيمِ الْوَاهِبِ الرَّزَاقِ
وَأَسْمِ الْعَظِيمِ الْقَادِرِ الْخَلَّاقِ
يَا مَنْ يَذَاتِكَ مُنْتَهَى إِشْرَاقِي
وَجَلَالِ وَجْهِكَ مِنْكَ فِي مَذَاقِي!!
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الرَّسُولِ وَآلِهِ
خَيْرِ الْوَرَى الْأَعْيَانِ وَالْأَعْرَاقِ
وَبِحَمْدِ مَوْلَانَا أُسَبِّحُ دَائِمًا
وَبِقُدْسِ ذَاتِ اللَّهِ فِي أَعْمَاقِي

لَمَّا مَحَا الْأَغْيَارَ صِرْتُ بِلَا أَنَا !!
فَاشْتَدَّ فِي مَحْوٍ وَفِي إِحْرَاقٍ
ثُمَّ انْتَبَهْتُ .. فَقِيلَ : مَنْ قَدْ جَاءَنَا
فَأَجَبْتُ : عَبْدٌ لِلْكَرِيمِ الْبَاقِي
قَلْبٌ مَحَبٌّ شَاكِرٌ وَمُقَدَّسٌ
مِنْ هَيْبَةِ الرَّحْمَنِ فِي اسْتِغْرَاقِ
قَالُوا : هِيَ الْأَسْمَاءُ .. قُلْتُ : تَبَارَكَتُ
بِاللَّهِ ضُمَّهُ .. وَنَبِيٌّ إِلَى الْعُشَّاقِ
قَالُوا : ارْتَقِينَا .. قُلْتُ : كَيْفَ ؟ فَأَعْلَنُوا
أَنَّ الصِّفَاتِ دَلَائِلُ الْخَلَاقِ
فِيهَا الْفَنَاءُ .. وَبِهَا الْبَقَاءُ لِمَنْ وَعَى
فِي الْحَضْرَةِ الْكُبْرَى عَلَى الْآفَاقِ

قلتُ: احسبوني يا رجالُ يَجْمَعِكُمْ
عَلَى أَفْوَزٍ بِمُرْتَجَى الْمُشْتَاقِ
لكنَّ هَمْسًا قال لي: اصْعَدْ عَلَيَّ
قولِ الخِصْوصِ لِتُرْتَجَى أَرْزَاقِي
لا تُرْتَجِ صِفَةً ولا إِسْمًا ولا
حِضْرَاتِ أَفْعَالٍ .. ترِ إِغْرَاقِي!!

ودخلتُ حِضْرَتَهُ .. فَصَحْتُ مُتَيْمًا:
الحِضْرَةُ الكُبْرَى .. فقال: رِوَاقِي
فصرختُ: نُورَ الذَاتِ .. قال: مُكْرَمٌ
إِنْ كُنْتَ تَحْفَظُ سِرَّ كَأْسِ السَّاقِي

فلقد رَجَوْتَ مِنَ النُّهْيِ عَيْنَ البَقَا
هِيَ سِرُّنَا وَكُنُوزُهَا تِرْيَاقِي
لكن سَتُحْرَقُ..قلتُ: ذَاكَ هُوَ المُنَى
فِي نورِ ذَاتِكَ أرتجى إِحْرَاقِي
إِحْرَاقُ صِفَاتِي كُلِّهَا وَكُنْ الذِي
أحيا به والنور في أعماقي
قال: إِذَا حَكَمْتَ..فقلتُ: حُكْمُكَ سِيدِي
الأعلى .. وهل للبعد غير الباقي!!
لكن بحق جلالِكُمْ لا تفصلوا
بينى وبين رسولك المصداقِ
دَعْنِي على أقدامه نَعْلًا له
واشُدُّ إِليه قِيادَتِي ووِثَاقِي

لا عيشَ لى أبداً بدونِ "المصطفى"
حياً وميتاً أو بيومِ تلاقى
نفسى وقلبى والخواطرُ والدمَا
تجرى بنورِ "المصطفى" وتُساقي

لَوْ يعلمُ العشاقُ ما قد نلتُهُ
منه من الأنوارِ والإشراقِ
فلربَّما جئوا وأصبح حالُهُمْ
كالمفلسِ المسكينِ من إملاقِ!!
كنتُ "الأسيرَ" فِئتُ من أفضاله
وأفاضَ بالإكرامِ والإعتاقِ

صِرْتُ "العتيقَ" فزادَ في إكرامِهِ
وَبِسْرِهِ قَدْ مَنَّ بِالْإِطْلَاقِ

صِرْتُ "الطليقَ" فقال: لستَ بِمُنْتَهٍ
فَأَصْدَحُ بِنُورِ الذَّاتِ فِي اسْتِغْرَاقِ

أَنْتَ "الغريقُ" بنورنا وَبِسْرِنَا
فاحفظْ لنا عَهْدًا تَرِإْغْرَاقِي

قلتُ: الأوامرُ مِنْكُمْ مَقْضِيَةٌ
واللَّهِ أَرْجُو البَعْدَ عَنِ إِخْفَاقِ

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ وَالْأَكْوَانُ مَا
دارَ الزمانُ ودامَ وَجْهُ الباقِي

قيل : انتبه واسمع وأنصت مُصَغِيًّا
هذا الكلام لصفوة العشاقِ
إن الذي قد قلتَ حقُّ كُلهُ
والصدق فيه .. وفيه من إغداقي
الذاتُ نورٌ لا يُحَاطُ بِكُنْهه
مَهْمَا ارتقى عَبْدٌ إلى مَرَاقي
لكن بقلب العبد يسطع حينما
يَفْنَى الوجودُ سِوَى العظيمِ الباقي
ولقد جعلتُ لنورنا بابًا إلى
روحِ النبيِّ "المصطفى" المصداقِ

هو فيكم نورٌ وَيَسْرِي بِالهُدَى
والبرِّ والتقوى وَحُسْنِ خَلَاقِ
” طه وأحمدُ والشفيعُ المصطفى “
هو خَيْرُ خَلْقِي .. صفوةُ الخَلَاقِ
وإمامُ كُلِّ الأنبياءِ وسراجُهُم
ودليلُ كُلِّ الأولياءِ الساقِي
لا يَرْتَقِي لِكَمالِنَا وَجَمالِنَا أبداً
بغيرِ ” محمدٍ “ من راقِي
فيحيطه برعايةٍ وعنايةٍ
أدباً يناسب رقةَ الذَوَاقِ
حتى يُؤدِّبَهُ سُمُوًّا عالِيًّا
فَيَضُمُّهُ لِمَعِيَّةِ العُشَّاقِ

فَأَفِيضُ مِنْ نُورِي عَلَيْهِ وَإِنَّهُ
لَهُوَ السَّرَاجُ وَنُورُهُ إِشْرَاقِي
وَالْعَارِفُونَ إِنِ انْتَهَوْا لِمَعَارِفِي
مَهْمَا عَلَتْ أَوْ عَمَّهْمُ إِغْرَاقِي
مَا جَاوَزُوا أَبَدًا بَدَايَةَ "أَحْمَدِ"
عِلْمًا وَوَصَلَا فَاذِ مِنْ أَرْزَاقِي
مَا شَاهَدُوهُ جَمِيعُهُمْ إِلَّا الَّذِي
فِي رُوحِ "أَحْمَدَ" مِنْ كُنُوزِ رِوَاقِي

فَافْتَحْ لَكُمْ قَلْبًا .. وَنُورًا بِالَّذِي
قَدْ ذُقْتَ رُوحَ الْعَاشِقِ الْمَشْتَاقِ

”بمحمدٍ“ وجهى وكأسى والطلا..
وهو الشرابُ ونورهُ والساقى
فافهمُ فإنَّ القومَ قد جهلوا لنا
هذى الكنوزَ وغرَّهمُ إشفاقى
قالوا نُوحِّدُ رَبَّنَا .. قُلْتُ : اعلموا
أنَّ الرسولَ ”محمدًا“ ميثاقى
”والعروةُ الوثقى“ وَحَبْلُ صِلَاتِنَا
ولكلِّ أسقامِ النَّهَى تِرْيَاقى
فاحفظْ لنا عَهْدًا بهِ وبحبله
تَجِدِ الْخِلاصَ لَدَيْهِ فى إِطْلَاقِ

صَلَّى عَلَيْهِ الْكَوْنُ يَوْمَ خَلَقْتُهُ
مِنْ قَبْلِ "آدَمَ" كَانَ فِي إِشْرَاقِ

لَمَّا وَقَفْتُ عَلَى الْبَحُورِ مُنَاجِيَا
رَبِّي بِقَلْبِ وَالِهِ مُشْتَاقِ
مَا زِلْتُ أَنْهَلُ مِنْ بَحُورِ جَمَالِكُمْ
حَتَّى بَدَأَ فِي نُورِكَ اسْتِغْرَاقِي
صِرْتُ "الْغَرِيقُ" فَقُلْتُ: أَنْعِمُ سَيِّدِي
بِغَرِيقِ نُورِ الْوَاهِبِ الْخَلَاقِ
وَعَشِيْتُ مِنْ فُورِي .. فَقِيلَ لِي: انْتَبِهْ
غَرَقِي الْغَرَامِ بِحُبِّنَا عَشَاقِي

لهم العُلاَ حِفْظاً بأعيننا .. وهمُ
بين الرموش وجفنها وماقى
فانهضْ وَقُلْ : ياسادتى ائى لها
وأنا الدليل لجمعكم والساقى
فلكلِّ عصرٍ فى الزمانِ رجاله
ولقد شَرُفْتُ بمهنةِ الإنفاقِ

قُلْنَا لك اصعدْ سَابِقاً فَتَرَ لنا
سِرّاً .. وحن لكم رُقَى الراقى
إنزلْ من الأعلى!! فلستُ معلقا
بلْ حيثُ تنظرُ ثمَّ وجهُ الباقي

أنا فيكم مَعْنَى.. ولستُ بداخلِ
فيكم ولستُ بخارجِ الآفاقِ

أنا حيثُ شئتُ تَرَى.. ولكن سِرُّنا
إن كنتَ تفهمُ... حيثُ كنتَ.. تلاقى

لا الجمعُ يحوينى ولا فَرَقٌ ولا
هذا رباطُ العهدِ والميثاقِ

فاتركُ لهمُ هذا الكلامَ وكنْ لنا
عبداً رَضِيّاً شاكِراً أرزاقى

فاسجدْ دَوماً حيثُ كُنْتَ وكيفما
تحيا فيبصر قلبكم إشراقى

واحفظ لنا عهداً .. وكنْ عبدى ولا
ترفعْ لكمْ رأساً على الإطلاقِ
عبدى له حصنى .. وفيه كرامتى
والكونُ يحمله على الأعناقِ
لكنْ برحمتنا وسرِّ وادنا
يأتى العبادَ يروحه إغراقى !!
وأنا المهيمنُ ما سواى بفاعلٍ
والكلُّ ظلُّ ما سواى الباقي
فبأمرنا فافعلْ .. وكنْ متأدباً
فالأمرُ والأفعالُ منْ أخلاقى
أنفقْ على الفقراءِ منْ أحببنا
حسّاً ومَعْنَى منْ غنى الرزاقِ

مِنْ عِلْمِنَا نُعْطِيكَ .. فَاشْرَحْ مَا بَدَأَ
لِقُلُوبِهِمْ فِي ظُلْمَةِ الْإِغْلَاقِ
لَا تَكْتُمِ الْفَضْلَ الَّذِي قَدْ نُلتُهُ
عَنْهُمْ .. فَقَدْ يُمَسُّوا مِنَ الْعِشَاقِ
عَلَّمَهُمْ أَدَبَ الْعُبُودَةِ .. ثُمَّ قَلَّ :
لَا حَوْلَ إِلَّا لِلْعَظِيمِ الْبَاقِي
وَالزَّمْ رِحَابَ "مُحَمَّدٍ" وَاجْعَلْ لَهُ
فِي قَلْبِكَ الْأَعْلَى مِنَ الْأَشْوَاقِ
لُدَّ بِالنَّبِيِّ وَآلِهِ مَهْمًا جَرَى
خَطْبٌ فَعِنْدَ "المُصْطَفَى" تِرْيَاقِي

وَأَدِمْ عَلَيْهِ صَلَاتِكُمْ تَسْعِدُ بِهَا
هُوَ رَحْمَتِي... وَكَلَامِهِ مَصْدَاقِي

يَا سَيِّدَ السَّادَاتِ .. يَا نُورَ الْهُدَى
يَا مَنْ بَنُورِكَ أُرْتَجَى إِغْرَاقِي
يَا سَيِّدِي .. "جَدِّي" .. وَرُوحَ قُلُوبِنَا
مِحْرَابَ قُدْسِ إِيَّاهُنَا الْخَلَاقِ
سِرُّ سَرِّي فِي الْكُونِ مِنْكَ مُتَوَرِّئاً
ظُلْمَ الْقُلُوبِ .. وَمَاحِي الْإِمْلَاقِ
وَاللَّهِ مَا يَوْمَا سَعَدْتُ مِنَ الدُّنْيَا
أَبْدَا بِإِكْرَامٍ وَلَا أَرْزَاقِ

إِلَّا بِنُورِ جَمَالِكُمْ لَمَّا بَدَأَ
لِلْقَلْبِ حِينَ يَفِيضُ بِالأَشْوَاقِ
فَانْشَقَّ قَلْبِي وَالفؤَادُ وَمَهْجَتِي
وَارْتَجَّ كُلُّ الكونِ فِي أعْمَاقِي
لَا زِينَةَ الدنْيَا وَلَا الأُخْرَى وَلَا
أَبْدَأُ أَعَانِي لَوْعَةَ المَشْتَاكِ
إِلَّا لِنُورِ جَمَالِكُمْ وَكَمَالِكُمْ
وَجَمَالِكُمْ يَا رَحْمَةَ الخَلَاقِ
وَلَقَدْ حُسِبْتُ عَلَيْكُمْ يَا سَيِّدِي
نَسَبًا وَحُبًّا صَارَ فِي الأَسْوَاقِ
وَأَنَا المَقْصَرُّ وَالضَعِيفُ جِهَالَةً
أَخْشَى غُرُورَ جِهَالَتِي وَنِفَاقِي

منكم إلكم سىدى ما قلىته
أعطى وأخذ من كؤوس الساقى
أما الفقير فانت تعلم حاله
والله ما عندى سوى إملاقى

يا رحمة للعالمين .. وإنى
من بعض نعت العالمين خلاقى
فاغفر وسامح سىدى واقبل لنا
فىكم رجاء العجز والإملاقى
واقبل بفضل منك فىك رجاءنا
واشدد بفضل منك فىك وثاقى

حتى أكونَ يوماً حَشْرٍ حامِلاً
لِنِعَالِكُمْ شَرَفاً عَلَى أَعْنَاقِي

”نَعْلٌ“ به نَعْلُو عَلَى كُلِّ الْوَرَى
ويكون في حَمَلِي له مصداقي

وَمِنَ الْفَقِيرِ إِلَيْكَ أَلْفَ تَحِيَّةٍ
مِّنْ كُلِّ أَحِبَابِي وَكُلِّ رِفَاقِي

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَانُورَ الْهَدَى
يَا رَحْمَةَ الْفِيَّاضِ بِالْأَرْزَاقِ

يَا مَنْ يَعِيبُ عَلَى الْفَقِيرِ مَقَالَه
هَلَّا اعْتَرَضْتَ عَلَى عَطَا الرِّزَاقِ !!

ما قلتُ إلا ما أمِرتُ بفعله
حب الرسول وآله الأعراقِ
أتعيني ” أئى أحبُّ محمدا “ !!
واللهِ ذا شرفٌ على الآفاقِ
رزقى من الرحمنِ حُبٌ ” محمد “
ما الحلُّ فى الآجال والأرزاقِ !!
فلانٌ هفا قلبى وزاد بى الجوى
بين الضلوعِ بلوعةِ المشتاقِ
أفلا أقومُ بحمدِ ربى شاكراً
وبمدح ” طه “ معلنا أشواقى !!!
واللهِ لو ذُقتَ الذى قد ذُقتُه
مِن نوره .. لَجِنْتِ دون فواقِ !!

فاسكتُ .. ودعني بالحبيب متيماً
أكرمُ به حباً .. وبالعُشاقِ
صَلِّ وَسَلِّمْ رَبَّنَا أَبَدًا عَلَيَّ
هَذَا الْكَمَالِ وَنُورِهِ الْبَرَّاقِ

يَا سَيِّدَ السَّادَاتِ ... يَا مَنْ رُوحِكُمْ
مِحْرَابُ أَرْوَاحِ بُقُدْسِ الْبَاقِي
أَنَا إِنْ أَتَيْتُ إِلَى رِحَابِكَ إِنَّمَا
قَدْ جِئْتُ أُطْفِئُ لَوْعَةَ الْمَشْتَاقِ
أَرْضٌ بِأَنْفَاسِ النَّبِيِّ تَطَهَّرَتْ
وَبَرُوضِهِ شَرَفَتْ عَلَى الْآفَاقِ

والعارفون بسرّ أنفاس النبيِّ
يدرون سرّ محيطها الرُقراقِ
والآلُ والصحبُ الكرامُ تطهَّروا
بنسيمها في صحبةِ المِصداقِ
أرضٌ بها عَرَقُ النبيِّ تطايرتُ
قطرائه بالطيبِ والترِياقِ
على أفوزٍ بنسمةٍ من ريحه
أو نظرةٍ لثراه بالأحداقِ
أرضٌ بها ألقى النبيُّ حديثه
كالجوهر المكنون في الأعماقِ
أرضٌ بها "أحدٌ" يحبُّ نبينا
والجزعُ يبكي من نوى وفراقِ

وَحَصَى يُسَبِّحُ فَوْقَ كَفِّ "المصطفى"
وَمِنَ الْأَنَامِلِ فَا رِمَاءُ السَّاقِي
هَذَا الْجَمَادُ .. فَكَيْفَ حَبَكَ - بِالذِي
خَلَقَ الْقُلُوبَ - يَمُوجُ بِالْأَشْوَاقِ !!
عَلَى أَفْوَزٍ بِمَوْطِيٍّ لِنَعَالِكُمْ
رُقِيًّا لِرُوحِي ... وَالْحَبِيبُ الرَّاقِي
أَرْضُ "بِهَا" "الزُّهْرَا" ... وَمَنْ ذِي مِثْلِهَا
بِنْتُ النَّبِيِّ وَأَصْلُ كُلِّ مِرَاقِي
أَرْضُ "بِهَا" "جَبْرِيلُ" يَهْبِطُ بِالْهُدَى
وَيَعُودُ بِالْأَنْوَارِ فِي إِشْرَاقِ
أَرْضُ "بِهَا" أَهْلُ "الْبَقِيعِ" ... وَكَمْ بِهِ
مِنْ خَيْرِ أَصْحَابٍ وَخَيْرِ رِفَاقِ

يَا رَبُّ إِنَّ جِئْتُ الرَّسُولَ تَقَرُّبًا
أَنْتَ الْكَرِيمُ وَوَاهِبُ الْأَرْزَاقِ
يَا رَبُّ فَاجْعَلْ لِي بِأَرْضِ نَبِينَا
عَيْشًا بِهِ هَدَى وَنُورٌ مَذَاقِ
فَإِذَا قُضِيَتْ يُعِزُّ وَجْهَكَ سَيِّدِي
جُدْ لِي بِقَبْرِ مَنْكَ حَيْثُ أَلَاقِي
رُوحَ النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ وَمَنْ أُنْقَى
”بِقَيْعِ غَرْقَدٍ طَيِّبَةٍ“ الْأَشْوَاقِ
لَا تَحْرِمْنِي سَيِّدِي دُنْيَا وَلَا
أُخْرَى جَوَارَ حَبِيبِكَ الْمِصْدَاقِ
هُوَ جَنَّتِي... وَلَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِالَّذِي
قَدْ صُنَّتَ فِي قَلْبِي مِنَ الْأَذْوَاقِ

فَبِعِزِّ وَجْهِكَ سَيِّدِي ... وَبِحَقِّهِ
أَوْلَا اسْتَجَبْتَ لِعَبْدِكَ الْمَشْتَاقِ !
وَعَلَيْهِ صَلَّى كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى
لِكَمَالِ نَوْرِ جَمَالِهِ الْبَرَّاقِ

يَا رَبُّ وَاَجْمَعْنِي بِحَقِّكَ سَيِّدِي
أَبْدَأْ عَلَيْهِ حَقِيقَةَ الْأَحْقَاقِ
نَوْمًا .. وَيَقْظَانَا .. بِكُلِّ عَوَالِمِي
كَرَمًا .. وَجُودًا مِنْكَ فِي أَرْزَاقِي
مِنْكَ السُّطُورُ وَمِنْكَ كُلُّ مَعَالِمِي
فَاقْبَلْ بِفَضْلِكَ مَا حَوَتْ أَوْرَاقِي

وَاللّٰهُ مَا أَرْضَىٰ بِغَيْرِ ” مُحَمَّدٍ “
عَدْنَا وَفَرَدوساً بِيَوْمِ تَلَاقِي
وَلِإِنْ تَجَاوَزْتَ الْمَقَامَ فَإِنَّمَا
مِنْ فَرَطٍ شَوْقِي عَشْتُ فِي إِغْلَاقِ
يَا رَبُّ فَاغْفِرْ لِي بِجَاهِ ” الْمَصْطَفِيِّ “
سَهْوِي وَعَمْدِي أَوْخَفِي نِفَاقِي
وَأَدِمْ صَلَاةً مِنْكَ لَيْسَ بِعَارِفٍ
قَدراً لَهَا .. غَيْرِ الْكَرِيمِ الْبَاقِي
مَهْمَا ارْتَقَتْ كُلُّ الْخَلَائِقِ لِاتَّفَرُّ
أَبْدأ بِبَعْضِ سَنَائِهَا الْبِرَاقِ
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مَا تَالِ تَلِي
” يَا مَنْ بِذَاتِكَ مُنْتَهَى إِشْرَاقِي “



المدينة المنورة

آخر جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ - سبتمبر ١٩٩٩م

